البطليوسي (١)

للدكتور محمد يوسف موسى

وهذا مفكر مسلم إسلامي آخر ، لم ينل الحظ الذي كان أهلاً له من ذيوع الاسم وبعد الصيت في تاريخ الفكر الاسلامي ، فقد أغفله مؤرخو هذا التفكير ، كما أغفلوا آخرين كثيراً كان يجب العناية بهم وبنتاج تفكيرهم ، نعني به عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي ، الذي ولد بمدينة بطليوس عام ٤٤٤ هـ ، وتوفي ببلنسية عام ٥٢١ هـ ، وكلتاهما من بلاد الأندلس كما هو معروف .

لقد كان هذا المفكر فقيهاً ، عالماً باللغة ، بصيراً بالعلوم القديمة ، وله جهد مشكور في ناحية التوفيق بين الدين والفلسفة ، وطريقته في علاج هذه المشكلة جعلته مرضياً عنه من معاصريه . هاهو ذا الفتح بن خاقان يقول عنه في كتابه قلائد العقيان : « وله تحقق بالعلوم الحديثة والقديمة ، وتصرف في طرقها القويمة ، ما خرج بمعرفتها عن مضمار مشرع ، ولا نكب عن أصل لسنة ولا فرع » ؛ ويذكر عنه الأستاذ العلامة الشيخ محمد بن زاهد الكوثري ، الحجة في العلوم والدراسات الاسلامية والذي يعيش بمصر هذه الأيام ، بأنه أبان هذه المسائل الفلسفية وكشف عن حقائقها ، إبانة خريت ، مع عنايته ألا يحيد قيد شعرة عن حدود شرع الله[٢] .

(١) يجب أن نذكر هنا أن الكلام فيما يتصل بوجود الخلاف والوفاق بين الدين والفلسفة ليس مشكلة التفكير الفلسفي في العصر الوسيط فقط ، بل ان هذه المشكلة لا تزال قائمة حتى اليوم لدى كثير من المثقفين المسلمين ، وبخاصة في الازهر . لهذا لا يعتبر ما نكتب في هذه الناحية حديثاً لا غناء فيه ، بل هو حديث له دائماً جدته وضرورته ، بل هو حديث يعني كثيراً من علماء الدين وتلامذته الذين لا يزال كثير منهم يرى ما كان يراه أسلافه في العصر الوسيط من وجود عداء بين الدين والفلسفة ، ومن ثم نرى هذا الفريق يحمل بين عقله وبين فهم الحقيقة حجاباً كثيفاً يمنع من التفكير الصحيح ومن الافادة من جهود الفلاسفة . قال هؤلاء وأمثالهم في القديم والحديث من تيه ما قالوا ، ولم يمنعه ذلك من أن يكون بصيراً بالفلسفة أيضاً

(٢) مقدمة كتاب الحدائق في المطالب العالية الفلسفية العويصة ص ٤ ، طبعة القاهرة عام ١٩٤٦

ونستطيع أن نقدر بأن تفكير البطليوسي الفلسفي يظهر لنا بوضوح في معالجته مشكلة ما بين الدين والفلسفة من صلات ، ولا غرو ، فبيان هذه الصلات هو — بحق — معقد الفلسفة الاسلامية وطرافتها . وقد خصص البطليوسي لهذه الناحية مؤلفاً كاملاً من مؤلفاته العديدة ، وهو كتاب الحدائق في المطالب العالية الفلسفية العويصة الذي ظهر بمصر لأول مرة عام ١٩٤٦ م . وتكاد محاولته التوفيق بين هذين الطرفين ، الدين والفلسفة ، تقوم على ما يأتي :

أ — تقرير حدوث العالم ، وبيان كيف صدر عن الله وحاجته له في حفظه وبقائه موجوداً .

ب — بيان أن الله يعلم نفسه وغيره وكل ما خلق ، مخالفاً بذلك الفارابي وابن سينا .

حـ — تحبيب الفلاسفة القدامى (اليونان) للمسلمين ، بتأكيده أن سقراط وأفلاطون وأرسطو كانوا موحدين ، وأنهم في آرائهم من الله حين تنهم على حقائقنا لم يخرجوا عما تقدره شريعتنا .

د — بيان أن النبي أعلى من كل إنسان آخر ، حتى الفلاسفة .

إلى غير ذلك من الآراء التي رأى فيها عوناً للوصول الى الغاية التي أرادها .

الله والعالم

نجد البطليوسي يذهب الى نظرية فيض الموجودات عن الله باعتباره العلة الأولى لها ، وإن كان علة مباشرة لأول موجود وغير مباشرة لما بعده ، كما نجد عنده نظرية العقول العشرة ، وهذا وذاك على النحو الذي نعرفه عن الفارابي وابن سينا . إلا أن البطليوسي ، في سبيل توضيح ما يقول ، يمثل ذلك لنا بوجود الأعداد عن الواحد ، فكل عدد معلول لسابقه لا يوجد الا بتوسطه ، وإن كان الواحد علة لها جميعاً ، إذ كان لا يصح وجود الأبعد إلا بوجود الأقرب[1] وهذا معنى ما يقال من أن الوحد علة العلل وسبب الأسباب »[2] .

ثم يمضي في التمثيل ، فيمثل وجود العالم من الله بوجود الأعداد الى ما لا نهاية عن الواحد ، لينتهي من ذلك إلى حل مشكلات قدم العالم أو حدوثه ومنها وجوده عن مادة أولى قديمة كما يقول الفلاسفة ، أو عن لا شيء كما يقول الدين ، ومنها مشكلة كيف تصدر

(١) كتاب الحدائق ص ٧ — ٨ (٢) الكتاب نفسه ص ٣٥

الـكثرة عن الله ، وهو واحد من كل وجه ، بغير تكثر في ذاته . ومثله بقوله : «وكما أن الأعداد كلها انبعثت الوجود من الواحد من غير حركة ولا زمان ولا مكان ، ولم يحتج الواحد في إيجادها إلى شيء آخر غير ذاته ، فكذلك حدوث الموجودات عن الباري تعالى ، بغير حركة وبغير زمان وبغير مكان وبغير أدوات ، ومن غير أن تحتاج في إيجادها إلى شيء غيره . وكما أن الواحد لا يوصف بأنه تقدم الأعداد بالزمان ، ولا يبطل ذلك أن تكون الأعداد محدثة عنه ، فكذلك الباري لا يوصف بأنه تقدم العالم بالزمان ولا يبطل أن يكون العالم محدثاً عنه . وكما أن الواحد لا يتغير عن الوحدانية بكثرة ما حدث من الأعداد عنه ولم يوجب ذلك تكثراً في ذاته ولا استحالة في جوهره ، فكذلك حدوث العالم وكثرته لا توجب تغير الباري في وحدانيته ولا تكثراً في ذاته »[1] .

وكذلك يمضي في التمثيل ليصل الى أن العالم محتاج في وجوده ودوامه لوجود الله ، فلو ارتفع لارتفع ، وأن الأمر ليس بالعكس فلو ارتفع العالم لم يرتفع الله ، كما هو الحال بالنسبة للواحد والأعداد الموجودة به . ومعنى هذا ، « أن وجود الله وجود مطلق لأنه لا يحتاج في وجوده الى غيره ، ووجود الموجودات كلها وجود مضاف لأن وجودها مقتبس من وجوده وفائض عنه[2] . أو بعبارة أخرى ، إن سريان الوحدة من الباري تعالى ، التي بها قوامه وتميزه عمن سواه للأشياء هو الذي كونها ، وأفاض الوجود على مراتبها وصيّر بعضها علة لبعض ، وهو تعالى علة وجود الجميع ، ولذلك سموه علة العلل والفاعل المطلق والفاعل بالحقيقة ، لأن فعل غيره إنما هو فعل بالمجاز[3] » .

بهذا ، في هذه الناحية ، يرى البطليوسي أنه وفق بين الشريعة والفلسفة ، وذلك بالقول بالله الخالق للعالم من لا شيء ، وإن كان ذلك بطريق العلية المباشرة لأول موجود وغير المباشرة لسائر الموجودات الأخرى . وكذلك بالقول بأن حدوث العالم عن الله لا يقتضي تقدم الله عن العالم بالزمان كما هو الأمر بالنسبة للواحد والأعداد الموجودة به . وهذا ما لا يستقيم أن يقول بخلافه ، ما دام الله هو العلة الأولى لوجود العالم ، والعلة لا تتقدم بالزمان على معلولها كما هو معروف ومسلم عقلياً ومنطقياً .

علم الله

في هذه المسألة نجد البطليوسي ينتقد من ذهب من فلاسفة المسلمين إلى أن الله لا يعرف غيره كالفارابي مثلاً ، أو أنه يعرف كل شيء ولكن على نحو كلي لا تفصيل فيه كابن سينا

(١) كتاب الحدائق ص ٣٦ — ٣٧ (٢) الكتاب نفسه ص ٣٦ (٣) الكتاب نفسه ص ٣٧ — ٣٨

مثلاً ؛ بمعنى انه يعلم الكليات لا الجزئيات ؛ كابن سينا مثلاً ؛ مستندين الى قول الفلاسفة القدماء : « إن الله لا يعرف إلا نفسه » . ثم يصف هذا القسم لكلام القدماء أي اليونان بأنه جهل وصرف تأويل لكلامهم ، فهم يرادون توهم هؤلاء عليهم [1].

ويعد أن اجتهد في شرح هذه العبارة المأثورة عن الفلاسفة القدماء على أربعة أوجه ، وكل وجه ينتهي الى هذا المبدأ : « اذا علم نفسه فقد علم كل وجود تابع لوجوده » [2] ، أخذ في التدليل على أن الفلاسفة أرادوا إذاً بذلك أن الله عالم بكل شيء ، إذ هو عقل مجرد عن المادة التي تمنعنا من إدراك الأشياء [3] ، وأن القول بغير ذلك يكون تأويلاً سيئاً لعبارة الفلاسفة السابق ذكرها . ولكن ينتهي من هذا ، وراء يعني بابطال رأي القائلين بأمر الله لا يعلم إلا ذاته ، والآخرين الذين ذهبوا الى أنه وإن كان يعلم الأشياء كلها ولكن ذلك على نحو كلي لا جزئي مفصل [4] ثم يستند في مناقشة هذه المذاهب الى ما جاء في القرآن من آيات تثبت علم الله الشامل لكل شيء : الكبير والصغير والكلي والجزئي ، مؤكداً أن ما جاء في هذا من أقوال الفلاسفة المتقدمين يطابق ما وردت به الشريعة [5] .

[illegible] اليونان المسلمين

وهنا نرى من الخير أن نكتفي بالاشارة الى ما حاوله في المسألة السابقة مسألة علم الله ، من أن الفلاسفة اليونان كانوا يرون أن الله يعلم بكل شيء ، وأن ما قيل عنهم غير ذلك ليس منشأه إلا من الجهل وعدم حذق علومهم وفهم كلامهم . ثم نشير الى ما ذكره في أثناء عرض رأيه ، أو بالأحرى الرأي الذي ارتضاه من الفارابي وابن سينا في مسألة وجود العالم عن الله ، من قوله : « فهذا مذهب أرسطوطاليس وأفلاطون وسقراط ، وغيرهم من مشاهير الفلاسفة وزعمائهم القائلين بالتوحيد » [6] كما يؤكد ، عند الكلام على خلود النفس وعدم فنائها ، أن هذا مذهب سقراط وأرسطو وأفلاطون وسائر زعماء الفلاسفة [7] .

ولسنا هنا في مقام بيان تحقيقه في نسبته القول بالتوحيد وعلم الله الشامل لكل شيء الى سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس ، فلعل له عذراً في أنه حكم بذلك بحسب الذي وصله منهم . ولكنا نشير الى أنه يرى بذلك أن يجعل الفلاسفة القدامى وآراءهم محببة الى المسلمين ، لأنها كما زعم لا تختلف عما جاء في الشريعة .

للبحث بقية

(١) كتاب الحدائق ص ٥١ (٢) الكتاب نفسه ص ٥١ ـ ٥٤ (٣) الكتاب نفسه ص ٥٥ (٤) الكتاب نفسه ص ٥٨ ـ ٦٠ (٥) الكتاب نفسه ص ٦٠ (٦) الكتاب نفسه ص ٤٤ (٧) الكتاب نفسه ص ٦١